اسم المادة الدراسية : الأدب الاندلسي

اسم المادة باللغة الانكليزية : Andalusia literature

(المحاضرة الحادية عشرة)

عنوان المحاضرة : رثاء المدن والممالك الاندلسية .

التدريسي ولقبه العلمي : أ.د. محمد عويد محمد الساير

المرحلة الدراسية : الثالثة .

محاضرة : ١١

رثاء المدن والممالك في الشعر الأندلسي

الرثاء شعر يعبر من خلاله عن موقف ذاتي حيال الميت (تعبير ذاتي بطبيعته ينفس عن لواعج النفس وانفعالاتها إزاء موقف معين ، وهو وسيلة لتكريم المرثي وتخليد مآثره) ، فهو ندبٌ وعزاء

وتأبين للمفقود وذويه. وهو قديم في الشعر العربي ومنه الأندلسي فعبر الشعراء عن مشاعرهم الذاتية من خلاله وبما أن الميت في رثاء المدينة هو شخص معنوي(المدينة / المملكة / الأندلس) لذا فان المشاعر قد تكون أعمق وأكثر تركيزا في العاطفة المتواجدة في النص وأكثر حسرة وأكثر بكاء .

كانت بدايات هذا النوع من الشعر تتمثل في رثاء المدن ، ثم رثاء الممالك ، ثم رثاء الأندلس كلها بعد أن سقطت أو أوشكت على السقوط .

عرف الأدب العربي رثاء المدن غرضًا أدبيا في شعره ونثره. وهو لون من التعبير يعكس طبيعة التقلبات السياسية التي تجتاح عصور الحكم في مراحل مختلفة. هذا النوع من الرثاء في الأندلس لا يقف في حدود عند رثاء المدن وحدها حين يصيبها الدمار والتخريب بفعل السقوط العسكري جراء الحروب مع العدو الأسباني النصراني أو تخرب بفعل الفتن الداخلية ، كالذي حدث في خراب قرطبة مرتين مرة بفعل الفتنة القرطبية الكبرى ومرة بفعل السقوط الأخير بيد الأسبان و يتجاوز ذلك إلى رثاء الممالك وملوكها التي سقطت على يدي يوسف بن تاشفين المرابطي. بل قد يرثي الأندلس بأسرها. وقد تميز هذا الغرض من رثاء المدن في الشعر أكثر من تميزه في النثر.

ويُعد رثاء المدن من الأغراض الأدبية المحدثة، ذلك أن الجاهلي لم تكن له مدنٌ يبكي على خرابها، فهو ينتقل في الصحراء الواسعة من مكان إلى آخر، وإذا ألم بمدن المناذرة والغساسنة فهو إلمام عابر. ولعل بكاء الجاهلي على الربع الدارس والطلل الماحل هو لون من هذه العاطفة المعبّرة عن درس المكان وخرابه.

رثاء المدن في المشرق:

عرف المشرق قدرا من هذا الرثاء شعرًا، عندما تعرضت عاصمة الخلافة العباسية للتدمير والخراب خلال الفتنة التي وقعت بين الأمين والمأمون. فنهبت بغداد وهتكت أعراض أهلها واقتحمت دورهم، ووجد السّفلة والأوباش مناخًا صالحا ليعيثوا فسادا ودمارا. وقد عبر الشاعر أبو يعقوب إسحاق الخريمي، وهو شاعر خامل الذكر، عن هذه النَّكبة في مرثيته لبغداد فقال:

كم أخ قد رأى أخاه صريعا تَرِبَ الخد بين صرعى كرام
كم مفدّى في أهله أسلموه حين لم يحْمه هنالك حامي

وبالإضافة إلى هاتين المرثيتين، حفل ديوان رثاء المدن في المشرق، بطائفة من القصائد تتحدث عن تلك المدن التي أسقطها هولاكو وتيمور لنك.

ولكن هذا اللون في المشرق لم يزدهر ازدهاره في الأندلس، ويعزى ذلك إلى أن طبيعة التقلبات السياسية في الأندلس كانت أشد حدة وأسرع إيقاعا، وأنها اتخذت شكل المواجهة بين النصارى والمسلمين حين تجمع الصليبيون عازمين على طرد المسلمين وإخراجهم من الأندلس. رثاء المدن في الأندلس. كان هذا الغرض في الأندلس من أهم الأغراض الشعرية، إذ كان مواكبًا لحركة الإيقاع السياسي راصدًا لأحداثه مستبطنًا دواخله ومقومًا لاتجاهاته.فضلا عن انه يتميز بنضج التجربة الفنية للمعاناة التي كانت الديمومة اهم سملتها كان الشاعر فيها ابن الحدث المباشر والشاهد المبصر والسامع بشكل مباشر فكانت أشعارهم في ذلك غزيرة وكان محوره الأول يدور حول سلبيات المجتمع الأندلسي بسبب ما انغمس فيه الناس من حياة اللهو والترف والمجون وانصراف عن الجهاد. وأن الأمر لن يستقيم إلا برفع علم الجهاد تحت راية لا إله إلا الله. ومن هنا فالصوت الشعري لرثاء المدن في الأندلس يخالف الأصوات الشعرية الأندلسية الأخرى التي ألفها أهل الأندلس في الموشحات ووصف الطبيعة والغزل وبقية الأغراض الأخرى.

ويلفت النظر أن عددا من قصائد رثاء المدن في الأندلس لشعراء مجهولين؛ ويُفَسَّرُ ذلك إما بخشيتهم من السلطان القائم بسبب نقدهم للأوضاع السياسية وإما أن عنايتهم بالحس الجماعي واستثارته كانت أكثر من عنايتهم بذواتهم الشاعرة

يقوم هذا الرثاء على مقارنة بين الماضي والحاضر؛ ماضي الإسلام في مجده وعزه، وحاضره في ذله وهوانه. فالمساجد غدت كنائس وبيعًا للنصارى وصوت النواقيس أضحى يجلجل بدلا من الأذان، والفتيات المسلمات انتهكت أعراضهن، والدويلات المسلمة تستعين بالنصارى في تدعيم حكمها. وتمتلئ كل هذه النصوص بشعور ديني عميق يطفح بالحسرة والندم كان سقوط مدينة طليطلة في أواخر القرن الخامس الهجري بداية المأساة؛ فهي أول بلد إسلامي يدخله الفرنجة

وكان ذلك مصابا جللا هزّ النفوس هزًا عميقًا. يقول شاعر مجهول يرثي طليطلة في قصيدة مطلعها :

لثُكلكِ كيف تبتسم الثغور سرورًا بعدما سبيت ثغور
طليطلة أباح الكفر منها حماها إنّ ذا نبأ كبير

في هذه القصيدة التي بلغت سبعين بيتا تصوير لحال المسلمين عشية سقوطها وما أصابهم من ذل وصغار، كما تصور ماضيها المجيد وحاضرها المهين. وتنتهي بأمنية مشتهاة أن يخرج من أصلاب المسلمين بطلٌ كطارق بن زياد يعيد الأمر إلى نصابه :

ألم تك معقلا للدين صعبا فذلّه كما شاء القدير
وأخرج أهلها منها جميعا فصاروا حيث شاء بهم مصير
وكانت دار إيمان وعلم معالمها التي طمست تنير
مساجدها كنائس، أي قلب على هذا يقر ولا يطير
فيا أسفاه يا أسفاه حزنا يكرر ما تكررت الدهور

ثم تختتم القصيدة بهذه الأمنية:

الاّ رجل له رأي أصيل به مِمّا نحاذر نستجير
يكُرّ إذا السيوف تناولته وأين بنا إذا ولت كرور
ويطعن بالقنا الخطار حتى يقول الرمح من هذا الخطير

وتعد مرثية الشاعر ابن الأبار لمدينة بلنسية من المراثي المشهورة في الأندلس، فقد أرسل بها على لسان أميره إلى أبي زكريا بن حفص سلطان تونس مستنجدا به لنصرة الأندلس ومطلعها:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست فلم يزل منك عزّ النصر ملتمسا

ويحكي هذا النص يأس أهل الأندلس من حكامهم المسلمين ومن ثم توجهوا لطلب النصرة من خارج الأندلس كما تصور حال بلنسية وقد تحولت المساجد إلى كنائس وفرض الكُفر سلطانه على الجزيرة وأن الذي أصاب بلنسية يوشك أن يصيب باقي المدن الأندلسية

مدائن حلها الإشراك مبتسما جذلان، وارتحل الإيمان مبتئسا
يااللمساجد عادت للعدا بيعا وللنداء غدا أثناءها جرسا

ثم يلتفت إلى أبي زكريا سلطان تونس قائلا:

طهّر بلادك منهم إنهم نجس ولا طهارة ما لم تغسل النجسا
وأوطئ الفيلق الجرار أرضهم حتى يطأطئ رأسا كل من رأسا
وأملأ هنيئًا لك التأييد ساحتها جرُدًا سلاهب أو خطية دُعُسا

أما مراثي الممالك فمن أشهرها مرثية أبي محمد، عبد المجيد بن عبدون التي رثى بها قتلى بني الأفطس أصحاب بطليوس ومطلعها:

الدهر يفجع بعد العين بالأثر فما البكاء على الأشباح والصور؟

وفيها يقول:

أنهاك أنهاك لا ألوك موعظة عن نومة بين ناب الليث والظفر

وفي هذه المرثية، يحشد ابن عبدون الكثير من أحداث التاريخ وتقلباته ويحكي ما أصاب الدول والممالك من مآسٍ ومحن متخذا من ذلك سبيلا للعظة والتأسي. وتمتاز القصيدة على طولها بحاسة شعرية قوية وعاطفة جياشة تزاوج بين مأساة بني الأفطس الذاتية والسياسية.

ومن أهم المراثي التي ربطت بين المأساة الذاتية والسياسية قصيدة أبي بكر بن عبد الصمد في رثاء مملكة أشبيليا وأميرها الشاعر المعتمد بن عباد:

ملك الملوك أسامع فأنادي أم قد عدتك عن السماع عوادي
لما خلت منك القصور ولم تكن فيها كما قد كنت في الأعياد
قد كنت أحسب أن تبدد أدمعي نيران حزن أضرمت بفؤادي

وتعد أيضا دالية ابن اللبانة في رثاء بني عبَّاد ومملكتهم من تلك المراثي التي ربطت بين مأساة المعتمد وضياع ملكه ومأساة الشاعر حين هوى عن عرش الشعر ومملكته :

تبكي السماء بدمع رائح غاد على البهاليل من أبناء عبَّاد
على الجبال التي هُدّت قواعدها وكانت الأرض منهم ذات أوتاد
نسيت إلا غداة النهر كونهم في المنشآت كأموات بإلحاد
تفرقوا جيرة من بعد ما نشأوا أهلا بأهل وأولادًا بأولاد

الرندي:

وأما نونية أبي البقاء الرندي فهي واسطة العقد في شعر رثاء المدن وأكثر نصوصه شهرة وأشدها تعبيرا عن الواقع. فهي ترثي الأندلس في مجموعها مدنا وممالك. فتصور ما حلّ بالأندلس من خطوب جليلة لا عزاء فيها ولا تأسٍ دونها وكيف ضاعت قرطبة دار العلوم، وأشبيليا مهد الفن، وحمص مهبط الجمال ، وكيف سقطت أركان الأندلس واحدة تلو الأخرى، وكيف أَقفرت الديار من الإسلام فصارت المساجد كنائس وغدا صوت الأذان صوت ناقوس؟!، ثم يهيب أبو البقاء الرندي بفرسان المسلمين عبر عدوة البحر إلى المسارعة لنجدة الأندلس والمسلمين. يقول في أول القصيدة :

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يُغَرُّ بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول من سره زمن ساءته أزمان
وللحوادث سلوان يسهلها وما لما حلّ بالإسلام سلوان

إلى أن يقول:

فاسأل بلنسية ما شأن مرسية وأين شاطبة أم أين جيَّان؟
وأين قرطبة دار العلوم، فكم من عالم قد سما فيها له شان
وأين حمص وما تحويه من نزه ونهرها العذبُ فياض وملآن
قواعد كن أركان البلاد فما عسى البقاء إذا لم تبق أركان

وتختتم القصيدة بنغمة حزينة شجية تسفر عن الأسى العميق والتماس العظة والعبرة فيما حل بالأندلس:

لمثل هذا يذوب القلب من كمدٍ إن كان في القلب إسلام وإيمان

وأهمية رثاء المدن أنه يكشف عن جوانب ثرية من التاريخ السياسي بين المسلمين والنصارى في الأندلس. كما يكشف جانبا من النقد الذاتي الذي واجه به الأندلسيون أنفسهم حين أَدركوا أن الانغماس في حياة اللهو والترف أدى إلى سقوط راية الجهاد، وأن ملوك الطوائف حين حرصوا على ملكهم الفردي أضاعوا ملكًا أعظم. وما أصدق سخرية الشاعر المصحفي حين قال:

مما يزهدني في أرض أندلس أسماء معتضدٍ فيها ومعتمد
ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخا صولة الأسد

سمات قصائد الرثاء :

تتضمن قصيدة الرثاء الشكوى من الأوضاع الفاسدة التي آل إليها أمر الحكام والوضع العام فضلا عن التسليم للقضاء والقدر وكذلك نجد صيحات الاستنجاد في بعض القصائد بقصد إنقاذ ما يمكن إنقاذه وتحمل بعض القصائد قلق الشاعر وحيرته بين البقاء في المدينة أو الرحيل عنها ثم قراره بالرحيل وهو ليس استسلاما بقدر ما يكون استقراء لحالة الرحيل القصري الذي بانت معالمه من خلال تخاذل الحكام وضعف الهمة وانشغالهم بأمورهم الشخصية ونسيان الغاية الكبرى هو الحفاظ على كيان الدولة ونجد ايضا صدق العاطفة .وعُمْق الشعور بالأسى والحزن والمرارة .والتصوير الواقعي لحال المسلمين .يمزجها بالحكمة الصادقة النابعة من التجارب المريرة .

موضوعات الشعر في عصري ملوك الطوائف والمرابطين

المديح:

كانت العرب لا تتكسب بالشعر وإنما كان مدحهم شكرا للممدوح على يد اسداها لا يستطيع الشاعر اداء حقها إلا يشعره وبين هذا الاصل الذي نشا عليه المديح في شعر ما قبل الاسلام وما نحن عليه في عصر ملوك الطوائف والمرابطين حقبة زمنية طويلة تلاحظ فيها ازدهار هذا الغرض ازدهارا كبيرا حيث كان سوقه رائجة لوجود التنافس الشديد بين ملوك الطوائف فكل كان يسعى في استقدام الشعراء وانتقاء المتميزين فيهم وعلى هذا النحو تنافس ملوك الطوائف في اكرام الشعراء يقترن شعر المديح بموضوعات الشعر الاخرى فالغزل اول ما يستفتح به في قصيدة المديح وهو منهج تقليدي جرى عليه الشعراء قديما لكنه قد يمتزج به على نحو ما ذكرناه للقزاز

حينما قسم البيت الشعري صدره غزلا وعجزه مديحا كذلك يمتزج بوصف الطبيعة. ان تقاليد القصيدة المدحية بقيت على ما كانت عليه في معانيها وأسلوبها فدارت حول

والكساد والضياع وتتجلى هذه الظلال في ان الشعر غلبت عليه موضوعات جديدة تسعى القول فيها وهي القلق والزهد والرثاء على ان الموضوعات التقليدية الاخرى تأثرت بهذه الظروف وتغيرت مساراتها حتى ترى ان مدح المرابطين لم يأت بدوافع الاعجاب بل وإنما كان على الشعراء ان يمدحوا ليعيشوا ومن الباحثين من يرى غير هذا الرأي اذ لم يلحظ تخلفاً في الحياة الثقافية والفكرية في هذا العهد ويمثل هذا القول يقول الاستاذ عبد الله كنون ويرى الاستاذ مصطفى صادق الراقص انه اجتمع لدى يوسف بن تاشفين وابنه اعيان الكتاب وفرسان البلاغة مما يدل دلالة واضحة على ازدهار الحياة الفكرية والثقافية .

الخصال الاربعة الرئيسية الصفة والشجاعة والعدل والعقل إلا ان عددا من المدائح قد امتزجت فيه طريقه القدماء بمذهب المحدثين وأنهما ضلا موصولين لا ينفصلان وإذ نحن ازاء كثرة المادحين والممدوحين نتساءل اكان هذا الغرض تكسبيا محضا ام انه اختلط بذاتية للشاعر وإعجابه بالممدوح قد يكون الحكم قاسيا اذا ما وصف الشعر المديح بأنه تكسبي على وجه العموم لان الشاعر لا يتجرد مطلقا عن ذاتيته ونظرته الخاصة للناس فالمدح فن اصيل من فنون الشعر العربي لا يعيبه ان معظم الشعراء خرجوا به عن مهجه السوية للتكسب والارتزاق فإذا صدق هذا الوصف في بعضهم فهو ليس عاما في جميعهم ومثالنا على ذلك ابن اللبانه الداني حيث وصفه ابن بسام بقوله (كان مائلا لبني عباد لطبعه فوفد على المعتمد بعد نفيه وفادة وفاء لا وفادة استجداء ونقطع عليه انقطاع وداد لا انقطاع استرفاد وكان ملوك الطوائف ازاء كثرت الشعراء بحاجة لتمحيصهم وابتلائهم وانتقاء شاعرهم من متشاعرهم مما زاد في قيمة الشعر وأصبحت سوقه رائجة ويبدو ان ملوك بني عباد اوجدوا ما يسمى بديوان الشعراء اذ لم يكن هذا الامر في جميع ممالك الطوائف اذ اصطنع بنوا عباد اجواء للشعراء تدعوهم الى مملكتهم وهؤلاء الشعراء الذين تدخل اسمائهم في الديوان هم (شعراء منتمون) وهذا النعت اطلقه(د.احسان عباس) و تجري عليهم الاعطيات السنوية او الشهرية فضلا على الجوائز الخاصة بالقصائد التي تلقي بالمناسبات ويذكر الدكتور احسان عباس ضربين اخرين من الشعراء فضلا عن الضرب الاول الذي ذكرناه اما الاول: هم الشعراء الذين بلغوا اعلى المناصب في

الدولة من مثل ابن زيدون وابن عمار وابن عبدون وكان يطلق على بعضهم لقب (ذو الوزارتين) اشار الى رئاستي الشعر والنثر

والضرب الاخر:هم الشعراء الجوالون وهم الذين لا يلتزمون اميرا واحدا بل يقصدون اكثر من واحد وقد يطيب لهم التزام امير معينا وهذه المرحلة غالبا ما تكون مرحلة سابقة اولية ثم يتحول الشاعر بعدها الى الانتماء والاستقرار في كنف احد الامراء كما حصل لابن اللبانه مثلا ومن الشعراء المداح من غير هذه الطبقات الثلاث شعراء جوالون دون ان يتخذوا الشعر وسيله للتكسب ومنهم ابن عبطون اللخمي الذي قال الشعر متحببا لا متكسبا ولا بد لنا ان نذكر ان هناك طبقة ترفعت على التجوال ان حازت الى فنون الشعر الاخرى خضوعا لمذهب ذاتي او فلسفي او ديني من مثل ابو اسحاق الالبيري وابن العسال وابن خفاجة الاندلسي وكان موقف النقد الاندلسي يعضد هؤلاء حيث يرى ابن بسام في ذخيرته ان هؤلاء الشعراء لم يتخذوا الشعر وسيلة للتكسب وان الزموا انفسهم العزة بترفعهم عن التكسب بأشعارهم وتملق الاخرين كما

ويبدو ان الابداع في غرض المديح مقرون بالعطاء اذ يعتمد العطاء على اعجاب الممدوح فهذا المعتمد بن عباد حين يسمع بعض أبيات ابن وهبون المرسي التي يقول فيها:

قل الوفاء فما تلقاه من أحد

ولا يمر لمخلوق عـــــــلى بال

وصار عندهم عنقاء مغربة

أو مثل ما حدثوا عن ألف مثقال

يرسل له ألف مثقال فيأتيه الشاعر شاكرا ليقول له المعتمد : الان حدث بها لا عنها

ومن نماذج المديح الاخرى قول ابن اللبانة الداني في المعتمد:

وجاءت به الايام تاجر سؤدد

يبيـع نفسيات المواهب بالحـــــــمد

يغيثك في محل يعينك في ردى

يروعـك في روع يروقك فـــــــــي برد

جمال وإجمال وسبق وصولة

كشمس الضحى كالمزن كالبرق كالرعد

فمعاني المديح هذه لا تخرج عن التي كان يمدح بها الشعراء في المشرق وهي صفات كثيرا ما تكون غير وصف الممدوح وإذا اردنا تأمل منهج الشاعر في القصيدة نجده يلجا الى التقسيم ويبدع فيه.

فهو يغيث في المحْل ويعين في الردى ويروع في الروع ويروق في البرد وهو في جماله وإجماله وسبقه وصولته كشمس الضحى والمزن والبرق والرعد.

ومن قصائد المديح قول ابن عمار الاندلسي في مدح المعتمد ابن عباد:

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى

والنجم قد صرف العنان عن السرى

والصبح قد أهدى لنا كافوره

لما استرد الليـــــــل منا العنبرا

وعلمت حقاً أن روضي مخصب

لما سألت به الغمـــــــام الممطرا

من لا توازنه الجبال اذا احتبى

من لا تسابقه الريح اذا جـــــرى

وجهلت معنى الجود حتى زرته

فقرأته في راحتيـــــــــــه مفسراً

ولابد من الإشارة إلى أن المديح قد أصابه الضعف بمجيء المرابطين لأنهم لم يلتفتوا إلى الشعر لأنهم أقاموا دولتهم على الجهاد ولم يجعلوا الشعر غاية في استتباب سلطانهم .

المصادر والمراجع :

- الادب الاندلسي : د. منجد مصطفى بهجت ، دار الكتب والوثائق – الموصل ، ١٩٨٦.
- الادب الاندلسي : د. مصطفى الشكعة ، دار العلم للملايين – بيروت ، ١٩٨٨.

- تاريخ الاندلس : د. عبد الرحمن علي الحجي ، دار القلم – دمشق ، ١٩٩٠ .
- دواوين الشعراء الأندلسيين :
  - ديوان ابن زيدون .
  - ديوان الاعمى التطيلي .
  - ديوان ابن اللبانة .
  - ديوان المعتمد بن عباد .
  - ديوان ابن الجنان الانصاري.
  - ديوان ابن خفاجة .
  - ديوان ابي البقاء الرندي .
  - ديوان ابن دراج القسطلي .
  - ديوان ابن عمار الاندلسي .
- كتب الأدب الاندلسي ومختاراته :
  - مطمح الانفس ، لابن خاقان .
  - قلائد العقيان ، لابن خاقان .
  - الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، لابن بسام .
  - الاحاطة في اخبار غرناطة ، للسان بن الدين الخطيب.
  - نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، للمقري التلمساني .